الحضارة الفينيقية

وتأثيرها في التمدن القديم

للشيخ بولس مسعد

اللغة الفينيقية

اللغة الفينيقية احدى اللغات السامية المشتقة من اللغة الارامية التي افترضت قبل زمن التاريخ . واشهر هذه اللغات العربية والسريانية والحبشية والفينيقية والاشورية والبابلية . والثلاث الاخيرة انقرضت

يرجع العلماء باللغات التعريفية الى اصلين هامين الاصل السامي او السرياني والاصل السنسكريتي . والاصل السنسكريتي ويعرف مع فروعه باللغات اليافثية نسبة الى يافث لا يدخل في بحثنا هذا فلا نتعدى له . وأما الاصل السامي فيقسم الى فرعين هامين الفرع الشمالي او السرياني والفرع الجنوبي او العربي . والفرع الشمالي ثلاث لغات : الآرامية والاشورية والكنعانية . فالآرامية ام لعدة لغات ترجع الى ثلاثة فروع جامعة وهي السرياني الحقيقي وهو افصحها والارامي والكلداني او النبطي . وكذلك الاشورية فقد تفرعت عليها عدة لغات اندرست الآن تماماً . وأما الكنعانية فهي لغة الشعوب الكنعانية ولها فرعان الأول العبرانية وهي لغة اهل الجبال من كنعانيي فلسطين واليوم لغة اليهود الدينية والثاني الفينيقية وهي لغة الكنعانيين الساحليين وعليها مدار الكلام في بحثنا هذا .

﴿ تعريف اللغة الفينيقية ﴾ اللغة الفينيقية لغة فريق من ابناء كنعان ولذلك كثيراً ما سميت كنعانية ولا سيما في نبوءة اشعيا . وبينها وبين شقيقتها العبرانية من التشابه والتناسب ما يجعل التمييز بينهما متعذراً وهذا ما جعلهما في نظر علماء اليونان اسمين مترادفين لمعنى واحد . ولئن اختلفت لغة التكلم عند الفريقين من بعض الوجوه لاسباب اهمها ان الفينيقية كانت لغة اهل السواحل والعبرانية لغة اهل الجبال فان لغة الكتابة عند الفريقين واحدة . وليس في الفينيقية الا مميزات قليلة منها كثرة استعمال الضم في حروفها واهمال الخفض في النهجئة الاخيرة من الكلمة . وأما حذف الحركات الطويلة او حروف المد في الكتابة فغير مقتصر على هذه اللغة دون سواها بل كان يشمل قديماً اللغات السامية جميعاً . على ان وجوه

الشبه بين هذه اللغات تتناول كثيراً من القواعد والمزايا التي خلت منها اللغات التصريفية الاخرى نظير الحروف الحلقية واقتصار افعالها على رباعين وثنائيه مشتقاتها . ومن مميزاتها انها تكتب من اليمين الى اليسار ما عدا الحبشية الحديثة . وهناك تشابه بينها في الحركات التي تستعمل وتلفظ وفي اسماء الحروف وغير ذلك مما لا سبيل الآن الى ذكره

ولا ادل على ما بين اللغتين الفينيقية والعبرانية من التشابه الشديد من ان الاسفار المقدسة لا تفرق قط بينهما وهي تسمي العبرانية لغة كنعان . ومما يستشهدون به على وحدة اللغتين ان جواسيس يشوع عند عودتهم من مصر خاطبوا راحاب الكنعاني بغير صعوبة وكذلك رسل الجبعونيين وسواهم من القبائل الكنعانية تكلموا امام الاسرائيليين من غير مترجم. وهناك شواهد اخرى كثيرة تثبت ان هاتين اللغتين كانتا في العصور القديمة ولا سيما في عصر ابراهيم ابي المؤمنين شديدتي التقارب والتناسب وانه ليس هنالك ما يحول دون القول ان اللغة الفينيقية هي التي اختيرت دون سائر اللغات لنقل اول وحي وأول سنة منزلة الى اهل الارض قاطبة

﴿ منشأ الحروف الفينيقية ﴾ اما الغة الكتابة عند الفينيقيين فترتقي في نشأتها الى اقدم عصور التاريخ والحروف الفينيقية هي في اعتبار جمهور من العلماء اصل حروف الهجاء لسائر اللغات . ذلك ان فن الكتابة كان في اول امره مقتصراً على صور ورسوم تشير اما الى مادة حقيقية موجودة او الى غرض مجازي لا يشار اليه الاّ بالرمز او الى صوت يدل على كلة مقصودة او على بعض حروفها. ثم تطرقوا الى التعبير عن الفكر برسم صور دالة على مسمياتها بحقيقتها او مشيرة الى الغرض المقصود بقرينة ما . وقد وجدوا من هذه الكتابة ستة انواع هيروغليفية وهي الهيروغليف المصري والعلامات الصينية والعلامات المسمارية في بلاد الكلدان والكتابة الحثية في سورية الشمالية وآسيا الصغرى والكتابة المكسيكية والكتابة الكانوتية وكلاها في اميركا . غير ان هذه الصور لم تكن تنطوي في مدلولها الاّ على الماديات ومما سهل ادراكه من المجازيات وأما التصورات المجردة من المادة كتصور العدل والرحمة والحب والحقيقة والكذب ونحو ذلك فلم يكن من الميسور تمثيلها بالصور فاضطروا لذلك الى التوسع في الاستدلال بنقش الصور على الهجاء الاول من مسمياتها بحيث اصبحت تلك العلامات والصور صوتية بعد ان كانت لا تجاوز حيز التصور . ولكن هذا النوع من الكتابة ظل قاصراً لا يفي بالحاجة

ذلك كان شأن الكتابة لما انبرى الفينيقيون لاستنباط هجائها . وكان بين اللغتين المصرية والسامية او الفينيقية تشابه تام في خمسة عشر حرفاً اوعلامة (وليس ١٣ حرفاً كما زعم بعضهم) وهي المعبر عنها عند المصريين بالحروف الصوتية فاخذها الفينيقيون واضافوا اليها سبعة حروف من عندهم تبعد صورها عن العلامات الهيروغليفية فاضطلعوا على تأدية لفظها بالخطوط المصرية بحيث القوا من مجموعها اثنين وعشرين حرفاً جعلوها هجاء لغتهم

وهذا التقارب بين اللغتين المصرية والسامية او الفينيقية يرجع في نشأته الى عصر الرعاة في مصر فقد طالت ولايتهم فيها من القرن الحادي والعشرين الى القرن السادس عشر قبل الميلاد . واتصال الفينيقيين بالمصريين في ذلك العصر اتصل نفوذ فينيقية الى مصر قبل ان يتصل نفوذ مصر الى فينيقية من حيث الصناعات والدين والآداب على نحو ما ذكرنا في مقتطف اكتوبر سنة ١٩٣٢ ص ٣٤٤ ودخلت اللغة المصرية الفاظ وتعبيرات كثيرة من اللغات السامية . ومن العلماء من يذهب الى ان الفينيقيين لم يقتبسوا شيئاً من مصطلحات الكتابة المصرية وانهم استندوا في وضع حروف هجائهم الى الكتابة البابلية . غير ان هذا المذهب ضعيف لم يقم عليه دليل محسوس الى اليوم ولو ان الفينيقيين كانوا رسل الحضارة البابلية والكلدانية الى العالم

ان العلماء لم يجدوا الى اليوم حروف هجاء قبل الحروف الفينيقية وما وجدوه من الكتابات القديمة انما يرجع بهجائه عن بعد او عن قرب الى اصل الهجاء الفينيقي . فهم يردون الحروف في جميع اللغات الى خمسة اصول وهي الاصل السامي واليوناني الايطالي والايباري والشمالي والهندي الحميري وهذه الحروف او الاقلام كلها على اختلاف اصولها ترجع في اعتبارهم الى امم واحدة هي الحروف الفينيقية او الهجاء الفينيقي الذي نقله الفينيقيون مع متاجرهم الى الامم الاخرى . ولو كان الامر غير ذلك اي ان الفينيقيين ليسوا مستنبطي هجاء لغتهم بل اقتبسوه من سواهم لوجدنا لهجائهم هذا اصلاً في الآثار المصرية او الاشورية والبابلية مع ان ما وجد من هذه الآثار حتى اليوم لا يؤيد هذا المذهب . وتعويلهم في انشاء هجاء لغتهم على بعض العلامات المصرية لا يصح ان يتخذ دليلاً على انهم ليسوا مستنبطي الهجاء الاول لسائر اللغات

﴿ تطور الحروف الفينيقية ﴾ وقد طرأ على الحروف الفينيقية بعض التغيير فقلب شكلها شيئاً وكيفها قليلاً بحيث لم تثبت الكتابة على وضعها الاصلي الى النهاية . وينحصر ما دخل على هيئتها من التبديل في ثلاثة ادوار

الدور الاول — كانت الكتابة الفينيقية في هذا الدور شائعة عند الشعوب الآرامية باسرها . وكانت تمتاز فيه بان من حروفها ما كان في بادىء الامر ممدوداً كثير الزوايا ثم صار بعد ذلك مستديراً . ويبدأ هذا الدور على عهد الرعاة في مصر السفلى وينتهي في القرن السادس قبل الميلاد

الدور الثاني — انقسمت فيه الكتابة الفينيقية الى قسمين : الكتابة الصيدونية والكتابة القرطاجنية . فالاولى استعملت من القرن السادس قبل المسيح الى صدر النصرانية . وتمتاز بكون حروفها اكثر استدارة واقل تعرجاً من حروف الكتابة في الدور الاول . وكانت ضخمة من وسطها دقيقة من رأسها . وأما الكتابة القرطاجنية فقريبة من الصيدونية غير ان حروفها غير منسوقة على خط مستقيم بل هي مجدبة قليلاً

الدور الثالث — كانت الكتابة الفينيقية في هذا الدور تعرف بالبونية وهي الفينيقية الحديثة

وكانت تستعمل على الساحل الغربي من البحر المتوسط من القرن الثاني قبل الميلاد الى ما بعد استيلاء الرومان على سورية . وحروفها تمتاز ببساطتها وتشابكها تشابكاً اشكلت معهُ قراءتها

﴿ فروع اللغة الفينيقية ﴾ ومن العلماء من يرد لهجات اللغة الفينيقية الى ثلاثة فروع اصلية كبيرة وهي : فرع جبيل وهو اقرب هذه الفروع الى اللغة العبرانية . وفرع صيدا وهو الاعم والاكثر انتشاراً والفرع البوني وهو لغة الفينيقيين الذين هاجروا الى قرطاجنة

﴿ امتزاجها بسواها واقتراضها ﴾ وقد تقربت اللغة الفينيقية من الآرامية او السريانية عقب الفتح الاشوري . ثم دخلتها الفاظ وتعابير يونانية بعد غارة اليونان على فينيقية فاحدثت فيها انقلاباً كبيراً واوشكت ان تندرس تماماً ولاسيما بعد ان أصبحت اليونانية لغة اهل المدن وكبار القوم في الديار السورية . غير انها بامتزاجها باللغة السريانية ظلت لغة فئة من الشعب الى ان ظهرت اللغة العربية التي تقاربها فقضت عليها وعلى سائر اللغات السامية . واللغة السريانية ثلاثة فروع رئيسية : السرياني الحقيقي وهو افصحها وكان لغة اهل ما بين النهرين والشام الخارجة . والارامي وكان لغة اهل لبنان والشام الداخلة وهو اقل من الاول صراحة . والكلداني او النبطي وهو اقلها احكاماً وكان لغة جبال آسية الداخلية في اشور وبابل وهو ما اثبته ابو الفرج في تاريخه مختصر الدول . اما المحدثون فيعدون السرياني اقل اللغات السامية انسجاماً واحكاماً من حيث نحوه . وقد دخله كثير من الالفاظ اليونانية فسلبته رونقه واجهزت عليه غزوة الاسكندر فقل استعماله في الديار الشامية ولم يأت القرن الثامن عشر حتى كان اضمحل منها تماماً ولم يبق له من أثر هناك الا في قريتي معلولا ومار الياس من ملحقات دمشق . غير انهُ مع ما انتاب هذه اللغة من الضعف ظلت لغة الطقوس الدينية عند السريان والموارنة الى ايامنا هذه خلافاً للغة الفينيقية التي كانت لغة البلاد الاصلية حتى الفتح الاشوري فانها انقرضت ولم يبق للغة الفصحى من أثر الا النقوش التي ترجمت الى اليونانية نقلاً عن مكتشفي المؤلف الفينيقي المشهور

﴿ انتشارها في افريقيا ﴾ أما في قرطاجنة والمستعمرات الفينيقية في افريقية الشمالية فان اللغة البونية وهي الفينيقية الحديثة ظلت لغة اهل البلاد الى القرن الثاني بعد الميلاد وبقيت مستعملة هناك بين بعض طبقات الشعب الى القرنين الرابع والخامس من التاريخ المسيحي

ويؤخذ من اقوال العلماء المستشرقين الذين بحثوا في منشأ اللغات السامية وانتشارها ان اللغة البربرية الشائعة في بلاد فازان وما جاورها من الواحات ونواحي اطلس والصحراء الغربية والاقاليم الواقعة في الشمال الغربي من افريقية ذات لهجات او لغات كثيرة ولها علاقة وثيقة باللغات السامية ولا تخلو من صلة باللغة القبطية . وهي ترتقي في نشأتها الى عهد تأسيس قرطاجنة . وقد عثروا في السنة ١٨٢٢ على أمثلة قديمة من قلمها الاسمي منقوشة على صخور بين مرزوق وغات . وفي السنة ١٨٤٥ عثروا على أمثلة اخرى في واحات طوات . ثم وجدوا كتابات

اخرى منقوشة في واحات بنغازي وغدامس وسواها . ووجد العلماء تشابهاً شديداً بين هذه الكتابات والكتابة الليبية التي وجدوها منذ نحو قرنين في قبر واقع على نحو ثلاثة أيام من خرائب قرطاجنة وحكموا بأن الحروف الهجائية الليبية او النوميدية التي يستعملها البربر في كتابة لغة غير سامية هي احدى الاقلام العديدة المشتقة من الكتابة الآرامية القديمة الاصلية وانها تشبهها في بعض أحرفها بل تقاربها اكثر مما تقارب اللغة الفينيقية وانها اشتقت منها في عصر يرتقي الى ماقبل العصر الذي وضعت فيه الحروف الفينيقية التي وصلت الينا . وهذا التشابه بين الكتابة الآرامية والكتابة الليبية النوميدية مما حمل العلماء المحدثين على الذهاب الى ان الحروف الفينيقية ليست باصلية وان الفينيقيين ليسوا مستنبطي الهجاء بل لابد ان تكون سبقتهم اليه امة من الامم السامية التي عاصرتهم او تقدمتهم . والمشهور عند العلماء ان اهل ليبيه كانوا يستعملون لغة تقرب من السريانية والعبرانية لانهم متناسلون من الفينيقيين الذين تملكوا هذه البلاد وكذلك بلاد البربر فان محالة من اهل صور ذهبت اليها في السنة ٨٨٦ ق . م وبنت فيها قرطاجنة ونشرت اللغة الفينيقية فيها ولذلك فان لغتها ظلت الى عهد طويل مقاربة للسريانية والعبرانية . فليس من المعقول اذن وهؤلاء القوم من سلالة الفينيقيين الذين استعمروا هذه الاقاليم ان يتناسوا بغير اللغة الفينيقية . غير ان التحريف الذي طرأ عليها بحكم الزمن جعل لها صبغة خاصة أدت الى هذه الشبهة في أصلها ونشأتها

وصفوة القول ان الفينيقيين هم أول من وضع هجاء لغتهم وان تكن الحروف المستعملة عندهم مشتركة بينهم وبين القبائل السامية والكنعانية التي امتزجت بهم وتألف من هذا الامتزاج الشعب الفينيقي المعروف وكل ماكان يصدر وينشأ من الاعمال في البلاد السامية والآرامية والفينيقية بعد هذا الامتزاج كان يسمى فينيقيًّا أو كنعانيًّا نسبة الى هؤلاء القوم لانهم كانوا أشهر تلك القبائل واكثرها نفوذاً وعلماً وثروة

﴿ أثرها في اللغة اليونانية ﴾ وفي اللغة اليونانية شيء كثير من اللغة الفينيقية . وهذا الامتزاج يرتقي الى زمن هجرة النحل الفينيقية الى اليونان بقيادة قدم او قدموس الفينيقي في السنة ١٥٦٠ قبل الميلاد المسيحي . فان قدموس هذا جاء بقومه الى اليونان وهي غارقة في لجة عميقة من الجهل والبداوة والهمجية . وكانت تسكنها قبائل من البرابرة يعيشون عيشة حيوانية ذليلة في الكهوف وشقوق الارض . ولم تكن الكتابة معروفة عندهم فاقتبسوها منه ومن قومه وهذا هو السبب في مارى من التشابه والتناسب في معظم حروف الهجاء واشكالها بين اللغة اليونانية واللغة السريانية والعبرانية او الفينيقية

والمعروف ان تاريخ اليونان لايرتقي في نشأته الى ماقبل القرن التاسع عشر قبل الميلاد وانه لما جاءتها اول قافلة من قوافل المستعمرين المصريين بقياده اينا كوس او اينيكوس قبل

المسيح بنحو ألفي سنة كان مكانها في حالة همجية مشهودة كما يستدل من تاريخ بوصريت وقاموس غايطانوس . وقد انشأ ابنا كوس له مملكة في بيزيونيز وأسس مدينة ارغوس وهو سليل ازعاة الذين اجتاحوا مصر وبعد ان استقروا في مفيس نحو قرنين طردهم فرعون منها الى ارض الدلتا «اباريس» وضاق هذا الاقليم بهم فخرجت قبائل منهم في طلب الرزق خارج وادي النيل ومنها هذه الفئة التي امت بلاد اليونان بقيادة ابنا كوس هذا . ثم لحقت بها قبائل اخرى بقيادة شيكرو بوس واستقرت في اتيكا واستولى زعيمها هذا على العرش في السنة ١٦٥٧ ق . م وهو اول من نقل الى هذا الاقليم عبادة اللاهة منيرفا وكانت من معبودات مدينة سايس التي نشأ فيها هذا الزعيم بمصر السفلى . وهو الذي انشأ مدينة اثينا واطلق عليها هذا الاسم تيمناً باسم منيرفا لان هذا هو اسمها باللغة اليونانية

اما قدموس فهو من الرعاة أيضاً جاء بقومه الفينيقيين الى اليونان بعد طرد الفراعنة لهم من مصر السفلى . وكان يصحبه داناوس وقد انشأ مملكة له في اقليم بيوتسيا واقام هناك مدينة تيبايس وجعلها قاعدة مملكته وبث الحضارة الفينيقية في ذلك الاقليم ولقن الاهلين فن الكتابة . وحل داناوس في ارغوس واستحوذ على عرشها وبث قدمن قومه بين سكانها وقيل انه رزق خمسين بنتاً ازوجهن من ابناء أخيه اجيتوس

وهجرة الفينيقيين الى بلاد اليونان لم تقف عند هذا الحد بل اتسع نطاقها على توالي الايام ولاسيما بعد ان طردهم يشوع ابن نون من اوطانهم فاموها جماعات حاملين اليها حضارتهم وثقافتهم وديانتهم وعاداتهم وصناعاتهم وفنونهم بدليل ما يرى من آثارهم في اسماء شعوبها ومدنها وابطالها واديانها مما اكثر العلماء من ذكره نظير بوكرت ونطاليس اسكندر وسواهما

﴿ الخلاصة ﴾ ويذهب بعض العلماء الى ان اللغة الكنعانية او الفينيقية والعبرانية لم يعثر لها على أثر الا في فلسطين وفينيقية ولبنان وفي المستعمرات الفينيقية ومعنى هذا في اعتبارهم انها نشأت في هذه البقعة لا في مكان آخر وهذا ما يستدل منه على ان الكنعانيين او الفينيقيين هم اول من استوطن الاقليم المعروف باسم فينيقية من الشعوب القديمة وان وجودهم هناك تقدم وجود كل قبيلة اخرى قديمة مختلفة اللغة وانهم اول من حرث ارضها واستغلها واول من بنى المدن وانشأ المالك فيها . ولم يجيئوا اليها من الخليج الفارسي او من بلاد العربية كما زعم بعض العلماء نقلاً عن هيرودوتس والا لكانوا تركوا هناك اثراً من لغتهم يدل على نزولهم تلك البقاع قبل حلولهم في ارض كنعان هذه . والرأي الذي يعول عليه في هذا الشأن انهم قدموا رأساً من شنعار في كلدية ونزلوا على سواحل البحر المتوسط في البقعة التي سميت باسمهم عند تفرق الشعوب لاول مرة في تاريخ البشرية . وفي هذه البقعة الضيقة انشأوا حضارتهم العجيبة التي كان لها ذلك الشأن العظيم في التمدن القديم